خاتمة:

وأخيرا وبعدما تتبعنا أحمد في رحلته مع أناه في أسبابها وأشكالها ومظاهرها - تبين لنا العامل الأساسي الذي ترعرعت في أحضانه هذه الأنا وكبرت هو عصر الشاعر، وأعني به الحياة العامة بأشكالها المختلفة والمتردية في نفس الوقت. من ضعف في السياسة وإقطاع وتمزق في المجتمع وأزمة في الاقتصاد وطوائف وفرق في الدين. الشيء الذي انعكس سلبا على حياة الشاعر التي ولدت على خلاف ذلك فكان أن رأينا نفسا ثائرة متمردة في وحدتها و غربتها رافضة للذلو الهوان. ومن هنا بدأت تلك الثنائية الضدية في النمو حتى بلغت أوجها فكان مقتل الشاعر بسببها. وقبل الموت كان ذلك التضاد معكوسا على محصول الشاعر الأدبي فجاء مملوء به وبعصره، وكان ذلك التضجيج وتلك الصراخات الإنية في معظم قصائده. مستعملا في ذلك كل الوسائل اللازمة التي تمكن شعره من احتوائه واحتضانه، مكثر في ذلك من استعمال ضمائر الرفع المنفصلة منها والمتصلة كـ"أنا والتاء والياء ونحن ونا" فجاء شعره حاملا للأنفة حد التعالي وللتحديد حد الكبرياء ومتمردا على كل أوثان عصره وأشباه الأوثان من البشر. حاملا لرؤى عقلية فلسفية لخصة نظريات بأكملها صالحة لكل زمان ومكان. كل هذا عبأ في لغة رصينة ومتينة بألفاظها وصورها. وفي قالب موسيقي مضجج، وفي كلمات فخمة قادرة على احتواء ذلك الضجيج. ولقد حاول المفسرون - منذ القديم - إيجاد تفسير لهذا النكوص الفردي وهذا الإحتضان للأنا عند الشاعر فرأى الدكتور يوسف اليوسف أنه يرجع

إلى أمرين أولهما إخفاق عصر الشاعر في تجاوز عبوديته وإخفاق الشاعر نفسه في إنقاذ ذلك. وثانيا احساس الشاعر بانهيار الحضارة العربية وانحطاط العنصر العربي الشيء الذي دفعه نحو السمات النفسية التي أبرزت تفوق العرب في الماضي ومن أهمها الآنفة ورفض الخضوع لغير العرب. فحضور العصر في روحه وصغر أناسه في عينه هو الذي دفعه إلى ذلك.

أما الدكتور طه حسين فإنه عدا ذلك شذوذ وأرجع هذا الشذوذ إلى ضعف نسبه الذي بغض إلى وجهه الحياة بأناسها. ففكر بذلك تفكير الشاذ وعاش عيشة الشاذ. ولست أدري هل يعد التفوق أمام الصغار وفي عصر الإنهيار شذوذا. والتأبي على الذل والحقار وانحراف وفساد. ثم لماذا لانسمي كل هذا امتيازا مادامت لعملية التنشئة الفاسدة ـ من ضعف النسب وبؤس الوالدين ـ كما يرى فرويد دورا بارزا يولد عند المرء دافعا عظيما للعمل وبذل الجهد وينمي عنده غريزة التسلط والسيطرة والتطلع إلى العلو.

وفي كل الأحوال لا يمكننا أن ننسى أو نغفل عن أمر هام وهو أن أنا أحمد ليست في غالبها أنا فردية بل هي أيضا أنا جمعية. فالأنا عنده جمعي وإن بد فرديا أليس هو حال الضمير العربي في غضبه وحزنه، في فرحه وترحه، في تعاليه وعشقه. فاحتضان الشاعر لأناه ليس هو احتضان من أجل الإحتضان وأو من أجل الاعتداد بالنفس أو التكبر أو هو احتضان من أجل الهروب بالنفس نحو عالم آخر. ولكنه في حقيقته صرخة إنية فردية في غياب الآخر. فهي إذن تبحث عن هذا الآخر ولاتتكره، هذا الآخر الذي يحرك روح الأمة ويتبنى مسار تغييرها الشامل للخروج بها من هوة السقوط والانحطاط أو ليست هي نفسها الأنا

التي هدأت لما وجدت هذا الآخر في لقائها مع من ينوب عنها ويحمل مشاعرها، ويمثلها أو يساعدها في حركتها نحو الانبعاث ممثل في شخص الخليفة سيف الدولة. هذا الرجل الذي اتصل به الشاعر قرابة تسعة سنوات، فالتقى السيف مع الكلمة الصادقة فعملا معا على استعادة المجد الضائع فكان أن خلفت تلك الحقبة أروع ما قاله الشاعر من قصائد. بل حتى أثناء فرقه من عنده ظل الشاعر وفيا للخليفة فعاتبه على هذا الفراق ولم يهجه. لأن عتابه كان واجبا أملته المنفعة العامة والمصلحة القومية قبل شيء آخر وأملاه التحدي الأعجمي بأشكاله المتعددة. ثن لنطرح هذا السؤال ونقول: لماذا لم يهجي الشاعر الخليفة أثناء فراقه من عنده كما فعل مع من سبقه من الخلفاء من جاء بعده أوحتى مع غير الخلفاء ؟ فالأكيد هنا أنه لم يخشى لومة لائم في ذلك. ونلتمس الجواب للسؤال من عند الشاعر نفسه. فالخليفة الحمداني كان عنده هو الرجل العربي الذي يحمل بين جنباته الضمير العربي كله. أو قل هو الأخر الذي كان يبحث عنه ويصرخ في غيابه. فلا يمكن له إذن أن يهينه أو يهجوه لأن في إهانته وهجوه إهانة للقومية العربية عامة. ولم يكن هذا الأمر ليصدر عن من مثل أحمد. فهو لم يهجه إذن لكن عاتبه عتاب نفس عالية متماسكة أرغمها الحب والوفاء والولاء للعروبة - مجسدة في شخص الخليفة في - أن تهمس في أذن كل عربي غيور:

إن كان سركم ما قد قال حاسدا

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

فأنت ترى معي أنه أشركه حتى في حساده فقال: "حاسدنا"

ولم يقل حاسدي مع أنه لو قال الثانية ماكان وزن البيت ليتغير لكن الشاعر أصر وقصد إلى استعمال "حاسدنا " بدل حاسدي مؤثرا بذلك الضمير الجمعي على الفردي. ثم أليس الشاعر هو الذي قال:

وإني لمن قوم كأن نفوسنا
بها أنف أن تسكن العظم واللحما

فالشاعر هنا كما ترى وضع الضمير الفردي في كفة "وإني" والضمير الجمعي "قوم" في كفة أخرى "نا" وأراد أن ينسب أناه إلى الأنا الجماعية فبدأ بذكر أناه في البداية لما انتقل إلى ذكر الأنا الجماعية كره أنت يذكر قومه في غيابه عنهم وذلك بقوله "نفوسهم" رغم أن هذه الأخيرة هي الصحيحة نحويا وقياسيا ، ورغم أن وزن البيت ما كان ليتغير بوجودها ، لكنه فضل مخالفة القياس والخطأ النحوي. وفي كل هذا تتجلى النزعة القومية بوضوح ويتغلب الضمير الجمعي على الفردي فهل عد هذا من عمل الصدفة العمياء؟

ثم إليك هذا المثال الآخر الذي ذاب فيه الأنا الفردي مرة أخرى في غمرة الأنا الجمعي. كان هذا أمام الأعداء، حيث برزت لنا أنا الشاعر على حقيقتها. ولست أعني بالأعداء خصومه من قومه. بل أعني بهم خصومه وخصومنا التقليديين من الأمم الأخرى؟ فمن النونية التي مدح بها عضد الدولة وردت له أبيات عبر فيها عن غربته القومية عن وطنه وأهله ومنها هذا الابيت الذي يقول فيه:

ولكن الفتى العربي فيها ❖ غريب الوجه واليد واللسان

وأخيرا نقول إذا كان لا بد للعرب إن يتباهو لعمالقتهم فليس عند أجدر وأحق بهذا الافتخار والتباهي من أبي الطيب المتنبي. الإنسان القيمة والشاعر القمة، الذي استطاع وحده وبواسطة الكلمة أن يحرك أمة ورحم الله أحمد الشاعر والإنسان وليس لنا شيء نهديه له من أفضل هذه الأبيات التي رثا بها يوما الدكتور رضا صافي فقال:

مجهل ظلت الريح لديه ❖ جثم الليل والسكون عليه

أنكرته الحياة فافترش الموت ❖ ذراه وحل بين يديه

ترهب الجن أن يكون لها دارا ❖ وتخشى الليوث تأوى إليه

يا شباب الديارقد تلهب الذكرى ❖ أبيا ولا تهز ذليلا

عظة يا شباب إن أبا الطيب ❖ قد سن للطموح سبيلا

obeikandl.com